

الباب الثالث

جماعات الصفوة في السياق المعاصر للريف المصري

الفصل التاسع : التركيب الاجتماعي لجماعات الصفوة في الريف في السياق المعاصر

الفصل العاشر : التفاعل الرأسي والافقي بين جماعات الصفوة في السياق المعاصر : أشكال التحالف والصراع

الفصل الحادي عشر : التحول في تركيب جماعات الصفوة ومواقفها في السياق المعاصر

الفصل السابع

التركيب الاجتماعى لجماعات الصفوة فى الريف

فى السياق المعاصر

بهقمة :

يستهدف هذا الفصل تقديم بيانات امبيريقية ميدانية - من قريتين مصريتين - تتصل بالجموعة الاولى من الفروض الخاصة بتركيب جماعات الصفوة فى الريف المصرى . ويعد هذا الفصل امتدادا للتحليل الذى قدمناه فى فصل سابق عن تركيب جماعات الصفوة فى السياق التاريخى ، حيث يقدم لنا الصورة المعاصرة لهذا التركيب . وفى ضوء هذا الهدف فان هذا الفصل يحاول بالتحديد الكشف عن ماهية جماعات الصفوة الموجودة بالمجتمع الريفى فى الوقت الحاضر ، ومدى تباين هذه الجماعات أو تجانسها ، والأصول الاجتماعية لهذه الجماعات ، وعلاقتها بالبناء الطبقي القائم . فضلا عن ذلك فانه يحاول أن يكشف عن مدى تباين أو تجانس طرق الانضمام الى الصفوة أو مايمكن أن نسميه طرق التوافد الى الصفوة recruitment of Elite members . والتصورات التى يكرنها الافراد عن الصفوة وتلك التى تكونها الصفوة عن نفسها . وأخيرا فانه يحاول أن يكشف عن مستويات الوعى الاجتماعى ، والوضوح الايديولوجى لدى الفئات المختلفة للصفوة .

ووفقا للخط العام المتبع فى هذا البحث فان كل هذه الأمور يجب أن ترتبط - على المستوى التحليلى - بالسياق الاجتماعى والثقافى للمجتمع الريفى والمجتمع المصرى بعامه . ويفرض علينا هذا أن يبدأ التحليل الميدانى

بتقديم صورة عامة - وسريعة - عن الاطار الاجتماعى العام للمجتمع المصرى ،
والتغيرات التى طرأت عليه فى فترة السبعينات ، والتى من المحتمل أن تؤثر
على تركيب الصفوة . وهذا الاطار العام هو مدخلنا الى خصوصيات الدراسة
فيما يتعلق بجماعات الصفوة ، وهو أمر أكدناه أكثر من مرة على طول هذه
الدراسة .

وقبل تحديد العناصر التى يشتمل عليها هذا الفصل لابد من الإشارة
الى أن نطاق التحليل هنا قد يمتد - فى بعض الأحيان - الى وراء لكى يكشف
عن التباين أو التجانس الذى يتميز به تكوين الصفوة . وهذا أمر طبيعى طالما
أن الصفوات القائمة الآن هى نفس الصفوات التى وجدت فى العقد الماضى ،
بل أن بعضها كان موجودا فى العقد قبل الماضى كالعمد والمشايع . ونصلا
عن أن مثل هذا التتبع سوف يكشف لنا عن التباين أو التجانس فى تركيبه
الصفوة ، فانه سوف يتيح لنا فرصة للمقارنة بين العقد الساج والعقد الثامن
من هذا القرن من حيث تأثير الظروف المجتمعية الكبرى على تركيب بناء
الصفوة فى الريف .

وفى ضوء الأهداف المحددة فيما سبق فإن هذا الفصل سوف يضم العناصر
الثلاثة التالية :

- أولا : الاطار الاجتماعى الثقافى العام : اضافة السبعينات
- ثانيا : التركيب الاجتماعى للصفوة وخصائصها العامة .
- ثالثا : نوعى الاجتماعى بين جماعات الصفوة .

أولا : الاطار الاجتماعى الثقافى العام : اضافة السبعينات

شهدت فترة السبعينات تغيرا حاسما فى التوجية الأيديولوجى للصفوة
القرمية بعد عملية الاحلال الشهيرة التى شهدتها هذه الصفوة فى مايو ١٩٧٨ .
واقجه هذا التوجيه الأيديولوجى - الذى اتخذ من مفهوم « الديمقراطية
الاستراكية » شعارا له - نحر تسجيع العلاقات الاقتصادية الليبرالية ، التى

فتحت بدورها الباب على مصراعيه أمام القطاع الخاص . وترتب على ذلك أن عاد النمط الاجتماعى المحلى الى الارتباط بقوة بالنسق الرأسمالى العالمى . وفى هذه الظروف لابد أن يظل النمط الرأسمالى التابع برأسه من جديد فى مجال السيطرة داخل التكوين الاجتماعى ، بعد أن اهتزت قوة السيطرة لفترة فى عقد الستينيات . ولقد بدأت آثار هذا التغير تترك بصماتها على مكونات البناء الاجتماعى . فعلى المستوى الاقتصادى نشطت علاقات السوق ، وتغير نطاق مجالات الاهتمام الاقتصادى فيما يتعلق بالزراعة والصناعة وفيما يتعلق بالأعمال المنتجة وغير المنتجة . وعلى المستوى الطبقي بدأت عناصر الاستقطاب الطبقي تظهر داخل البناء الطبقي غير المتجانس . وعلى المستوى الثقافى تعمقت مظاهر التشوه الثقافى حيث انتشرت القيم الاستهلاكية الترفية ، وتغيرت مستويات التقويم الشعبى ومعايير الحكم على الفئات المختلفة المرتبطة بهذا التقويم . وعلى المستوى الأيديولوجى ظهر الدفاع قويا عن الليبرالية المحافظة بين عناصر الصفوة الحاكمة ، وإن كان هناك بعض الجماعات التى ترفع راياتها الأيديولوجية المضادة على استحياء . ومن الطبيعى أن تنعكس كل هذه التغيرات على التنظيم السياسى للمجتمع . فلا بد أن يخلق الواقع الجديد بعض المشكلات السياسية التى تساهم فى تدعيمه واستمراره . فكان الإلغاء التدريجى لنظام الحزب الواحد (الاتحاد الاشتراكى) ، والتدرج نحو صياغة واجهة ديمقراطية تسيطر فيها الطبقة صاحبة المصلحة فى النظام الجديد . وكان تعديل قانون الحكم المحلى بحيث أصبح المجلس المحلى أحد قنوات صناعة القرار على المستوى المحلى . وكان انشاء مجلس الشورى موازيا فى تكوينه لمجلس الشعب ومساعد له فى اصدار التشريعات التى تتطلبها الصياغة الجديدة للبناء الاجتماعى .

ولقد فرضت علينا هذه التغيرات أن نتعرف - من خلال الدراسة الميدانية التى أجريت على قريتين - على التأثيرات التى تركتها على البناء الاقتصادى الاجتماعى للريف ، ليكون ذلك أساسا نفهم فى ضوءه تركيب جماعات الصفوة وما يمكن أن يكون قد طرأ عليها من تحولات .

ما تزال الزراعة هي النشاط الاقتصادي الاساسى لسكان القريتين ، وان كانت ظروف التغير السابق الاشارة اليها قد دعمت وعمقت الانشطة الباشية الأخرى من حول الزراعة . ويبلغ زمام القرية الاولى (بنى واللمس) حوالى ٧٩٤ فداناً ، فى حين يبلغ زمام القرية الثانية (سحيم) حوالى ٨٠٩ أفدنة . ويزرع المساحة الأولى ٥٦٩ حائزاً ، فى حين يزرع المساحة الثانية ٦٧١ حائزاً . ولكن هذا لا يعنى أن تغيرات السبعينات لم تترك تأثيراً على النشاط الاقتصادي الاساسى فى القرية . على العكس من ذلك لقد تركت تأثيرات بالغة على تعميق أسلوب الاستغلال الراسمالى للأرض وتطوير اساليب الانتاج . وان كانت لم تقض على بعض مظاهر التوجيه المركزى للزراعة المتمثل فى تحديد الدورات الزراعية وتسويق بعض الحاصلات الزراعية . ولقد تبدى هذا التعمق للرأسمالية فى بعض المظاهر منها :

١ - ارتفاع سعر الأرض كسلعة وزيادة التنافس على شرائها مع ازدياد تداول النقد وتعدد الانشطة الاقتصادية . فقد ارتفع سعر الفدان فى القرية الاولى من حوالى ١٠٠٠ جنيه عام ١٩٧٠ الى ٧٠٠٠ جنيه عام ١٩٨٠ . وارتفع سعر الفدان فى القرية الثانية من ٨٠٠ جنيه عام ١٩٧٠ الى ٧٥٠٠ جنيه عام ١٩٨٠ :

٢ - التوسع فى تطوير أدوات الانتاج خاصة أدوات الرى والحرا ودرس الحبوب ، خاصة مع النقص المستمر فى الأيدى العاملة الزراعية التى هبأت لها الظروف الجديدة فرصاً للعمل فى المنشآت المعمارية بالقاهرة أو السفر الى البلاد العربية . فلم يكن بالقرية الاولى عام ١٩٧٠ الا جرار واحد (الخاص بالجمعية الزراعية) ، وأصبح بها الآن أكثر من ٥ جرارات . ولم يكن بها أى ماكينة رى بها الآن ما يزيد عن ١٥ ماكينة رى . اما القرية الثانية فيها الآن أربع جرارات وبعض ماكينات الرى ولم يكن بها منذ خمس سنوات الا جرار الجمعية الزراعية .

٣ - التوسع والاهتمام بالمحاصيل التجارية غير التقليدية • فقد كانت كل قرية من القريتين تقليدية الزراعة ولا تهتم بزراعة المحاصيل التجارية الا تلك التى تحدد فى الحورة الزراعية • أما الآن فان هناك اهتماما بزراعة «الكسبرة» و «عباد الشمس» و «فول الصويا» و «الخضراوات» فى القرية الاولى ، والقصب والفاكهة والخضراوات فى القرية الثانية •

٤ - من خصوصيات هذا التطور الرأسمالى أن صاحبه نقص فى قوة العمل بالريف • هذا النقص لا يمكن أن يعزى الى تقلص التحول البروليترارى • فهذه العملية مستمرة وبكثافة من جراء تفتت الملكية من ناحية ، والاقدام عاى بيع الأرض الزراعية (خاصة القطع الصغيرة) والسفر للعمل بالخارج • ويبدو أن السفر للعمل بالعراق والسعودية أو القاهرة لعب دورا أساسيا فى نقص الأيدى العاملة • ويشكو أصحاب الأرض فى اثقريتين من نقص الأيدى العاملة ومن ارتفاع أجر عمال الزراعة ، الذين أصبحوا يشترطون الأجر وكهوية العمل المقابل لها وزهن هذا العمل •

٥ - ومن خصوصيات هذا التطور أيضا أن صاحبه بعض الانشطة الرأسمالية غير الزراعية • وهى فى معظمها أنشطة طفيلية تعيش على امتصاص جزء من فائض العمل الزراعى ، والعمل خارج الوطن • وأهم هذه الانشطة امتلاك سيارات الأجرة والنقل • فالقريتان اللتان لم يكن بهما أى نوع من هذه السيارات قبل خمس سنوات ، أصبحت كل منهما تمتلك ما يربو على سبع سيارات من سيارات الأجرة والنقل الخفيف والنقل • ومن الانشطة الأخرى التى بدأت فى الانتشار ، نشاط المقاولات فى أعمال المبانى والرى • وتعرف كل من القريتين هذا النوع من النشاط • وفضلا عن هذا فقد تعمق نشاط « السوق السوداء » فى الريف ، فقد طفق بعض الناس يتاجرون فى الأسمدة والمنتجات الزراعية التى تسوق تعاونيا فضلا عن الأخشاب والحديد والأسمنت وهو نشاط يرتبط بأعمال

٦ - ترتب على ذلك ألا تنمو الأنشطة الانتاجية غير الزراعية الا بشكل محدود وفى اضييق الحدود • وتمثلت هذه الأنشطة فى بعض مشروعات تربية الحيوانات ، والمناحل • وبرغم دخول الكهرباء فى القريتين الا انها لم تساهم حتى الآن فى خلق أى نشاط صناعى •

وبالرغم من هذا التعمق للنمو الرأسمالى فى اتجاهات مختلفة ، الا أن ذلك لم يقض تماما على بعض أشكال العلاقات الاقتصادية الموجبة والمتمثلة فى قيام الحكومة بشراء المحصولات من الفلاحين ، وتكليف الفلاحين بتوريد كميات معينة على فدان (٢) • كما توجد أيضا بعض العلاقات الانتاجية غير الرأسمالية : فما يزال العمال الزراعيون فى غالبيتهم يستخدمون بعض آلاتهم الخاصة فى عملية الانتاج ، كما توجد بعض صور العمل القديمة بالتقربة كالمتملية • هذا فضلا عن أن النشاط الزراعى يكشف فى داخله عن تباين ظاهر، فلا يتجه كل المزارعين نحو الانتاج للسوق بزراعة المحاصيل التجارية كالحدايق والقصب والخضراوات، فما يزال هناك بعض المزارعين الذين ينتجون محاصيل معيشية للاستهلاك الخاص (وان كان جزء من فائض العمل يتم تداوله

(١) لم تكن أى من القريتين تعرف النشاط التجارى بشكل مكثف • فلم يكن هناك سوى بعض الوسطاء الذين كانوا يعملون بتجارة القطن (فى نطاق محدود جدا) وبعض المحاصيل الأخرى • ولكن ظروف السبعينات قد هيأت لهؤلاء وغيرهم فرصة العودة الى النشاط التجارى والدخول فى عمليات تجارية من نوع جديد كالاتجار فى المحاصيل الزراعية التى تسوق تعاونيا ، والاتجار فى المبيدات الزراعية والأسمدة ، والاقمشة ، ولوازم البناء • ولا يغيب عن الذهن هنا أن تفسير نشأة هذا النوع من النشاط يرتبط بازدياد التكامل بين مصر والنسق الرأسمالى العالمى ، وما ترتب على ذلك من تدفق السلع الاستهلاكية وفتح مكاتب توكيلات للشركات العالمية التى تهتم بتسويق منتجاتها فى مصر •

(٢) تتمثل هذه المحصولات فى القطن والقمح والبقول فى القرية الأولى ، والقطن والقمح والبقول فى القرية الثانية •

، واستملاكه بواسطة وسطاء آخرين عندما يضطر هؤلاء الى بيع جزء من محصولاتهم المعيشية لئلا أشياء أخرى) . وأكثر من ذلك فما تزال هناك بعض الأسر التي تعمل كوحداث انتاجية متكاملة بحيث يمكن القول بأن النشاط الرأسمالي لم يؤد الى تحلل الأسرة كوحدة منتجة ويحدث هذا عادة في اللكيات الصغيرة التي لا تسمح بتوفير فائض للعمل المأجور ، والتي لا يستطيع بعض أفراد الأسر التي تمتلكها ان يمارسوا نشاطا مغايرا للزراعة أو حتى الدخول الى نطاق العملية التعليمية للانتقال الى نشاط آخر من خلال التعليم . وحتى اذا تعلم بعض أفراد الأسرة فانه يفضل الإقامة في القرية للاشتراك في العملية الانتاجية الزراعية . وفي هذه الحالة يميل نشاط الأسرة الى التعدد وذلك لاستخدام الفائض من عائد « الوظيفة » في أنشطة أخرى كتسمين الماشية . وتشير كل هذه البيانات الى تعدد وتجاوز أشكال النشاط الاقتصادي المختلفة . فالناظر الى القرية في السياق المعاصر يستطيع أن يرى معظم التراكمات التاريخية السابقة . فخصوصية التطور وعدم تكافؤه تؤدي دائما الى أن يوجد كل تغير يحدث بجانب ما هو قائم فعلا دون الغائه تماما . وهذا هو السبب في أننا نجد أشكالاً للنشاط الاقتصادي غير متجانسة ، وأشكالا للعلاقات الانتاجية غير متجانسة أيضا .

ولا يقتصر عدم التجانس هذا على المستويات الاقتصادية بل يظهر بشكل جلي في المستويات الثقافية . فقد أدت ظروف الانفتاح الاقتصادي وما صاحبها من ظروف التوسع في الهجرة الى البلاد العربية للعمل السريع والعودة مرة أخرى الى القرية ، أدت الى انتشار بعض القيم الاستهلاكية الترفية . وبرغم تباين الطبقات والشرائح الاجتماعية في درجة تبني هذه القيم ، الا انها تنتشر عند كل الفئات الاجتماعية أما بشكل واقعي أو في شكل طموحات يحاول الفرد غير القادر أن يحققها (دائما بمحاولة السفر الى الخارج) . ولقد تحول السير في كنف هذه القيم الى رمز للمكانة الاجتماعية . فهي تدل في نظر حاملها الى رغد العيش والاستقرار بالرغم من أن الحال ليس كذلك في معظم الأحوال . ولا يتسع المجال هنا لتفسير نشأة هذه القيم المشوهة وعلاقتها

بالبناء القائم ، وتكفى الإشارة هنا الى أن ذلك الانتشار يعد مؤشرا على جنوح الثقافة وتشوهها مع سيطرة النمط الرث من الرأس مالية . على أن هذا النوع من القيم ليس هو النمط السائد فقط . فهي توجد جنبا الى جنب مع قيم حديثة أخرى ومع التراث التقليدى بكل تبايناته الداخلية . فما تزال علاقات القرابة تعمل كقوة موجهة للسلوك فى القريتين . وما تزال العادات والتقاليد والمعتقدات باقية دون أن يمسه تغيير الا فى النخر اليسير . وما تزال هذه اعادة والمعتقدات تختلط ببعض أمور الدين بحيث لا يظهر عند كافة الناس - بما فيهم المتعلمون - فصل بين الدين الرسمى وبين هذه المعتقدات والعادات . وجملة القول أن المستويات الثقافية تكشف هى الأخرى عن عدم تجانس وعن تجاوز لا يتوازى فقط مع أشكال الانتاج وعلاقاته ، وانما يؤدى دورا هاما فى استمرار هذه الاشكال وفى تدعيم البناء برمته .

وفى ضوء هذا يتسم البناء الطبقي فى القريتين بعدم التجانس أيضا ، بالرغم من أن عدم التجانس هذا لا يظهر باديا للوهلة الاولى . ونبدأ فى توضيح هذا اللاتجانس من خلال استعراض فئات الحيازة المختلفة فى القريتين :

جدول رقم (١)

توزيع فئات الحيازة فى القريتين

الفئات	عدد الحائزين		عدد الحائزين		الجملة	
	القرية الاولى		القرية الثانية			
	عدد	%	عدد	%	عدد	%
اقل من فدان	١٩٢	٣٣٨	٣٤٧	٥١٧	٥٣٩	٤٣٤٦
من ١ - ٣	٣٥٦	٦٢٣	٢٨٢	٤٢	٦٣٨	٥١٤٥
من ٣ - ٥	١٨	٣٣	٣٦	٥٤	٥٤	٤٣٥
من ٥ - ١٠	٢	٤	٦	٩	٨	٦٥
اكثر من ١٠	١	٢	—	—	١	٩
المجموع	٥٦٩	١٠٠	٦٧١	١٠٠	١٢٤٠	١٠٠

المصدر : تم تفريغ هذا الجدول من خلال الكشف الفعلية للحيازة بالجمعية التعاونية فى كل قرية

ويكشف الجدول عن تجانس واضح فى حجم الحيازة • فمعظم الحائزين يتركزون فى فئة أقل من فدان وفئة من فدان الى ثلاثة أفدنة • ولكن عندما تنتقل الى الفئة من ٣ - ٥ نجد أن عدد الحائزين ينخفض بشكل درامى (١٨ حائزا فى القرية الاولى بنسبة ٣٣٪ من عدد الحائزين فى هذه القرية ، و ٣٦ حائزا فى القرية الثانية بنسبة ٥٤٪ من مجموع الحائزين فى هذه القرية) • وينخفض العدد أكثر فى الفئة التالية من ٥ - ١٠ حيث يوجد حائزان فقط فى القرية الاولى وستة حائزين فى القرية الثانية ، ولا يوجد تقريبا حيازات فى الفئة أكثر من ١٠ الا حائزا واحد فى القرية الاولى • ومع ذلك تظل هذه البيانات غير كاشفة عن التباين فى البناء الطبقي القائم •

ولكن من شأمل كشف الحيازة ومقارنة الاسماء التى تنتمى الى أسر واحدة ، ومن خلال التعرف على ظروف القرية ، اتضح أن بيانات الحيازة لا تكشف - ولا تعكس - التوزيع الفعلى للحيازة حيث يظهر لدى الفلاحين اتجاه نحو توزيع الحيازة على الأولاد والزوجات بحيث لا يظل مع رب الأسرة الا نسبة ضئيلة منها • وعلى سبيل المثال فان القرية الاولى تعرف ملكيات كثيرة أكثر من ١٠ أفدنة ومع هذا فانه لا يوجد فى كشف الحيازة الا حائز واحد داخل هذه الفئة • ومثل ذلك يقال عن القرية الثانية • فكشوف الحيازة لا تكشف الا عن حائزين تزيد ملكيتهما عن ٥ أفدنة ، ولكن الواقع يكشف عن أن هناك أفرادا أكثر من هذا ممن يملكون أو يحوزون ملكيات أو حيازات تزيد من عشرة أفدنة ، بل أكثر من عشرين فدانا (٢) • وبناء على تلك الحقيقة ، فان التوزيع الفعلى للحيازة على الاسر المختلفة داخل القرية يمكن أن يكشف عن قدر من التباين فيما يتعلق بملكية الأرض ، وهو تباين يمكن أن يرتبط بشكل استغلال هذه الأرض على ما أشرت فى مكان سابق فى هذا الفصل •

(٣) يرجع السبب فى تجزئ الحيازة على هذا النحو الى قانون الضرائب الذى يقرر عدم تحصيل ضرائب على الملكيات التى تقل عن ٣ أفدنة ، وإلى بعض الأمور العملية الأخرى •

على أن هذا التباين الطبقي لا يرتبط فقط بحجم الحيازة وشكل استغلال الأرض ، وإنما تدعّمه عوامل أخرى على رأسها ملكية وسائل الانتاج خاصة الآلات الزراعية التى يقوم أصحابها من المزارعين بتأجيرها للفلاحين . هذا فضلا عن تربية الماشية والنحل ، ومصادر الكسب الأخرى من سيارات الأجرة والنقل . ولقد انتصح من الدراسة الميدانية أن بعض الذين يمتلكون أدوات الانتاج من الجرارات وماكينات الري ، وبعض الذين يشتغلون بالانشطة الأخرى غير الزراعة هم أولئك الذين ينتفعون بحيازات ذات حجم كبير . وهنا يمكن القول أنه كلما ارتفع حجم الحيازة كلما مال النشاط الاقتصادى نحو التعدد ، وكلما تعددت بالتالى مصادر الدخل ، وزداد التباين الطبقي . وبناء على ذلك فإننا نستطيع أن نميز دخل المشتغلين بالزراعة بين أربع طبقات أساسية : طبقة برجوازية زراعية تحوز مساحة معقولة (٤) من الأرض وتستغل أرضها فى زراعة المحاصيل التجارية غير التقليدية التى تدر دخلا عاليا . وطبقة وسطى يحوز أعضاؤها مساحات أقل من الأرض أو نفس المساحات التى يحوزها أعضاء الطبقة السابقة ، ولكنهم لا يخرطون فى أنشطة متعددة ولا يميلون نحو استغلال أرضهم فى زراعة المحصولات التجارية غير التقليدية . وطبقة صغار الفلاحين الذين يحوزون مساحات صغيرة من الأرض ويزرعون المحاصيل التقليدية والمعيشية ويعملون فى أرضهم بأيديهم أو من خلال « المازلة » (٥) . وأخيرا العمال الزراعيون الذين لا يمتلكون أو يحوزون أرضا على الإطلاق ، أو يزرعون بعض القراريط التى لا تغنيهم عن العمل المجاور .

وقد يكشف لنا ذلك عن تباين البناء الطبقي ، غير أنه قد لا يكشف بدقة

(٤) يبدو أنه من الصعب أن نربط بين الحيازة فى حد ذاتها وبين المستوى الطبقي على الأقل فى القريتين اللتين أجريت فيهما الدراسة ، طالما أن الذى يكشف عن الطبقة ليس الحيازة فى حد ذاتها وإنما ما يرتبط بها من استغلال رأسمالى للأرض وأنشطة أخرى مرتبطة بالزراعة أو خارجة عنها .

(٥) يعرف نظام المازلة فى القرية الثانية ، ويعرف فى القرية الأولى ولكن تحت اسم « المساعدة » ويرتبط بالقرابة بمعنى أن المساعدة تتم من أقرباء أساسا .

عن عدم تجانسه • ويمكن أن يتضح لنا عدم التجانس بشكل أكثر دقة من الشرائح التي توجد خارج نطاق المشتغلين بالزراعة • فهناك الموظفون وبعضهم يمتلك أرضا ويمكن أن نصنفهم داخل الفئات السابقة ، ولكن يبقى التعليم الذي يتمتعون به دون غيرهم عاملا في تميزهم خاصة وأن معظمهم يحتقر العمل البدوي المتعلق بالزراعة أو على الأقل لا ينخرطون فيه • ولقد قابلت في القريتين بعض المتعلمين العاملين بالفقيرة لا يعرفون بالضبط أين تقع أرض الأسرة ، بمعنى أنهم لا يستطيعون أن يميزوها عن الأرض المجاورة لها • وهناك بعض التجار الذين لا يعملون بالزراعة (فاما أنهم باعوا أرضهم الزراعية واشتغلوا بالتجارة ، وأما أنهم سافروا الى الخارج للعمل وعادوا ليعملوا ببعض الاعمال التجارية خاصة فتح محلات البقالة أو بالتجار في الدقيق والاسمدة والمبيدات الزراعية) • وهناك الحرفيون الذين يعملون بالتجارة والحداثة والحياكة • وهناك الفلاحون الذين تم تعيينهم في وظائف عمالية بالمصالح الحكومية بعد أن قضوا فترة طيلة في الخدمة العسكرية • وهؤلاء يتشبهون بالموظفين المتعلمين في سلوكهم في نطعماتهم وفي عدم اهتمامهم بالعمل في الزراعة • وهناك أخيرا « الاثريا الجدد » الذين لا يعملون بالزراعة ولا يهتمون بالاستثمار فيها بقدر اهتمامهم بالمشاريع التي تدر عليهم دخلا سريعا كتشغيل سيارات التاكسي والنقل والعمل بالمقاولات •

وفي جرد هذه الشرائح بجانب التركيب الذي حددت معالمه فيما سبق ، فإن البناء الطبقي يبدو غير متجانس • حقيقة أن بعض هذه الشرائح يمكن أن تصنف داخل الطبقات الزراعية ، ولكن تبقى دائما فئات لا يمكن تصنيفها فهي اما فوق الطبقات جميعا كالاثرياء الجدد ، واما خارج التركيب القائم برمته كالحرفيين وأصحاب محلات البقالة الصغيرة • وجملة القول أن وجود هذه الشرائح بجانب التركيب الطبقي الأساسي القائم على النشاط الزراعي والانشطة الاخرى المرتبطة به قد أدى الى عدم تجانس البناء الطبقي في الريف ، وهو أمر تدعم وجوده سرعة الحركة من نشاط الى آخر والانخراط في أنشطة مختلفة في ذات الوقت • ولا شك في أن وجود بناء تركيب طبقي على

هذا النحو سوف يؤثر على تشكيل جماعات الصفوة جنبا الى جنب مع العوامل البنائية الأخرى خاصة أشكال النشاط الاقتصادي وأشكال الثقافة المسيطرة .
غما هي اذن نوعية العلاقة بين تركيب بناء الصفوة وبين هذه المكونات البنائية ؟ وما هو بالتحديد تركيب جماعات الصفوة المعاصرة في الريف ؟
هذان السؤالان الى الفقرة التالية مباشرة .

ثانيا : التركيب الاجتماعي للصفوة وخصائصها العامة

نتجه هنا نحو تحليل التركيب الاجتماعي للصفوة المعاصرة في الريف وكذلك الخصائص العامة لهذه الصفوة ، وذلك في ضوء الاطار الاقتصادي الثقافي الذي حددنا معالمه فيما سبق . ويعني ذلك أننا نتجه نحو الكشف عن اجابة السؤال الآتي : من هم جماعات الصفوة في الريف الآن ؟ ومن هذا السؤال البسيط نستطيع أن نشق بعض الاسئلة الفرعية : هل تتباين هذه الجماعات وتتعدد أو أنها تتشابه وتتجانس ؟ ما هي الأصول الاجتماعية لكل منها ؟ وما هي قنوات التوافد لهذه الجماعات ، بمعنى ما الذي يجعل الشخص عضوا في الصفوة ؟ وما هي دلالة التعليم كأحد قنوات التوافد هذه ؟

أمكن من خلال الأسلوب المنهجي المتبع في هذه الدراسة التعرف على الأفراد الذين يمكن أن نعتبرهم صفوة في القريتين . وكان عدد هؤلاء الأفراد ٣١ فردا في القرية الاولى و ٣٠ فردا في القرية الثانية . ووفقا لتعريف كل من الصفوة القديمة والصفوة الجديدة المأخوذ به في هذه الدراسة أمكن تقسيم هؤلاء الى صفوة قديمة وصفوة جديدة . تضم الصفوة القديمة في القرية الاولى ٢٥ عضوا ، والجديدة ستة أعضاء . أما في القرية الثانية فان الصفوة القديمة تضم ٢٣ عضوا ، والصفوة الجديدة ٧ أعضاء . ونقدم فيما يلي وصفا لبعض الخصائص لمجموع أعضاء الصفوة القديمة والجديدة في القريتين على أن نوضح الفروق بين الجماعتين بحيث يتبدى أمامنا مدى صدق المعيار الذي اتخذناه للتمييز بين الجماعتين . هذا من ناحية ، ومن الناحية الأخرى فان هذه الخصائص سوف تميط اللثام عن الأصول الاجتماعية لأعضاء الصفوة ، ومدى ما يتمتعون به من قوة اقتصادية وسياسية .

قد يظهر للوهلة الاولى أن هناك ارتباطا بين عضوية الصفوة وبين التعليم كما يشير الى ذلك الجدول التالي (١) :

جدول رقم (٢)

توزيع أعضاء الصفوة الجديدة واقدية وفقا للمستويات التعليمية

مستويات التعليم	القرية الاولى		القرية الثانية		المجموع
	الصفوة القديمة	الصفوة الجديدة	الصفوة القديمة	الصفوة الجديدة	
يقرأ ويكتب	١٤	١	١٢	—	٢٧
أقل من متوسط	١	—	—	—	١
متوسط	٧	٢	٧	٥	٢١
عال	٣	٣	٤	٢	١٢
المجموع	٢٥	٦	٢٣	٧	٦١

يظهر من هذا الجدول أن معظم أعضاء الصفوة سواء القديمة أو الجديدة أما أنهم يعرفون القراءة والكتابة أو يحملون شهادات • فليس هناك أمى واحد بين أعضائها • كما أن الحاصلين على شهادات متوسطة أو عالية بين أعضاء الصفوة القديمة يقترب من النصف في القرية الاولى والثانية • كما أن مجموع الحاصلين على شهادات عالية في القريتين قد بلغ ١٢ عضوا بنسبة ١٩٫٦٪

(٦) تم جمع هذه البيانات وبيانات الجداول التالية من خلال صحيفة بيانات أساسية •

من مجموع أعضاء الصفوة في الفريتين • غير أن البيانات الكمية والكيفية عن هؤلاء الافراد تكشف عن زيف هذه العلاقة بين عضوية الصفوة وبين التعليم • فمن الناحية الثقافية هناك شك كبير في جدوى التعليم في خلق أنماط من الدستور يختلفون عن نظرائهم في القرية ، فالمتعلمون يشاركون الفلاحين في سلوكهم الذي يقال له سلوك تقليدي ، بمعنى أن سلوكهم الصق بالتراث الخاص بالقرية • وهم ينزمتون بشأنه في بعض الأحيان أكثر من الفلاحين انفسهم بحيث يمكن القول أن المتعلمين في القرى لا يتميزون عن الفلاحين الا في مسائل مظهرية تتصل بالمظهر وأنماط الاستهلاك والاهتمام برموز المكانة •

وفضلا عن ذلك فان بكل قرية من الفريتين عددا كبيرا من المتعلمين من كافة المستويات ، غير أنهم ليسوا جميعا أعضاء في جماعات الصفوة • وهذا دليل آخر على ان هناك عوامل أخرى تعمل على منح القوة السياسية غير التعليم • وأهم هذه العوامل القوة الاقتصادية والسلطة والانتماء القرابي أو العمل التطوعي الذي يحدد رموز المكانة الخاصة بالصفوة •

على أنني لا بد أن أوضح نقطة هامة في هذا الشأن • فقد يعتقد البعض أن التحليل الذي أقدمه هنا أميل الى التحليل الوظيفي الثنائي من حيث أنه يركز على ارتباط العوامل القرابية بالعوامل الاقتصادية والسياسية • ولكن مثل هذا الربط الوظيفي غير وارد في هذا التحليل على الاطلاق ، الا بالقدر الذي يخدم فكرة تركيز القوة السياسية واعتمادها على أسس غير الاساس التعليمي وحده • وأكثر من هذا فان هذا الربط بين العوامل يهدف أساسا الى بيان زيف الفرض الوظيفي الذي يؤكد على المواجهة اثنائية بين التقليد والتحديث ، ومن ثم المواجهة بين صفوة تقليدية غير متعلمة وأخرى حديثة متعلمة • والذي نود أن نوكد هنا مختلف تماما • فمن ناحية ، لا يعد التعليم مقياسا للصفوة الجديدة حيث كشف الواقع عن وجود عدد غير قليل من المتعلمين بين صفوف الصفوة القديمة • وهم ينضمون اليها بحكم انتمائهم الى الطبقة المسيطرة في المجتمع الريفي (كبار الحائزين وكبار ملاك أدوات الانتاج) •

ومن ناحية أخرى ، فإن الصفوة الجديدة التى تمثل موقف المعارضة من خارج الفئات المسيطرة تضم بين صفوفها بعضا من الفلاحين المستنيرين . هذا فضلا عن اعتبارين آخرين :

الأول : أن مجرد اتخاذ موقف وبدائية الانضمام للصفوة الجديدة من جانب المتعلمين خاصة يرتبط - فى غالبية الحالات - بطموح طبقي ، أعنى اخذ زمام القوة من أيدي الصفوة القديمة وبالتالي احتلال موقع طبقي مرتفع .

الثانى : ان الذى يصعد وينضم بالفعل الى صفوف الصفوة القديمة - سواء انضم الى الصفوة القديمة مباشرة أو انضم اليها من خلال موقف معارضة تحول بعده الى صفوفها - لا يحقق هذا الموقع من خلال التعليم فقط ، وانما من خلال عوامل أخرى مكمله أهمها اكتساب الثروة (من خلال النشاط الاقتصادي فى بعض المشروعات أو السفر للخارج) ومن خلال الرصيد القرابى (وهو يعمل هنا كواجهة لعائلته أمام العائلات الأخرى) أو من خلال العمل التطوعى داخل القرية (سواء تطوع لحل مشكلات من خلال الممارسة غير الرسمية أو تطوع لإنشاء مشروعات فى القرية كبناء مسجد أو ترميم مدرسة أو وحدة صحية أو خلافة) .

وبناء على ذلك فإن للعوامل الأخرى أهمية بالغة فى اكتساب صفة العضوية داخل جماعات الصفوة . وأول هذه العوامل هو عامل القوة الاقتصادية أو امتلاك الثروة . فمعظم أفراد الصفوة القديمة فى القريتين تنتمى الى شرائح من البرجوازية الزراعية ، التى تمتلك أعلى الحيازات أو تعمل بأنشطة اقتصادية متعددة أو كليهما معا . ويكشف الجدول التالى عن التوزيع الفعلى لحيازات أعضاء الصفوة (٢٧) .

(٧) هذه البيانات ليست من واقع سجلات الحيازة وانما تم جمعها من خلال صحيفة البيانات الأساسية السابق الإشارة إليها .

جدول رقم (٣)

التوزيع الفعلي لحيازات أعضاء الصفوة

فئات الحيازة	القرية الاولى		القرية الثانية		المجموع
	صفوة قديمة	صفوة جديدة	صفوة قديمة	صفوة جديدة	
لا يوجد ملكية	—	١	—	١	٢
أقل من فدان	٢	١	٤	٤	١١
١ — ٣	٤	٤	٨	٢	١٨
٣ — ٥	٨	—	٥	—	١٣
٥ — ١٠	٥	—	٤	—	٩
أكثر من ١٠	٦	—	٢	—	٨
المجموع	٢٥	٦	٢٣	٧	٦١

إذا قارنا بين حجم حيازات الصفوة القديمة وحجم حيازات الصفوة الجديدة ، لاتضح لنا على الفور أحد العوامل الاقتصادية وهي ملكية الأرض . فالأعضاء القلائل الذين ينتمون الى الصفوة الجديدة لم تزد ملكية أى منهم عن ثلاثة أفدنة ، بل أن هناك منهم من لا يمتلك أرضا على الإطلاق . وفي مقابل ذلك فإن نصف أعضاء الصفوة القديمة تقريبا في القرية الاولى يحوزون حيازات أكبر من ٥ أفدنة ونصف هذا العدد يمتلك أكثر من عشرة أفدنة . أما في القرية الثانية فنصف أعضاء الصفوة القديمة يقلون في فئة الحيازة من ٣ الى أكثر من عشرة أفدنة . وأهم من ذلك كله فإن الذين يملكون أقل من فدان من أعضاء الصفوة القديمة في القريتين (٢ في القرية الاولى و ٤ في القرية الثانية) ، بل انه لا يوجد بين صفوفهم من لا يمتلك أرضا على الإطلاق .

ولكن قد تبدو هذه الحيازات كلها ضئيلة على توزيعها هذا . وهنا لابد من البحث عن بعض المتغيرات الأخرى التي تعمل بجانب حيازة الأرض على تدعيم الموقف الاقتصادي للصفوة . وقد كشفت البيانات عن أن الحيازة لا تعمل بشكل مستقل ، وإنما تضاف إليها أنشطة أخرى تدعم من المركز الاقتصادي للشخص الذي ينتمي إلى الصفوة القديمة . ولقد حاولت أن اتعرف على الأنشطة الاقتصادية المختلفة التي يمكن أن تكون مصدرا للدخل بالنسبة لأعضاء الصفوة . ولقد كشفت هذه المتابعة عن تعدد مصادر الدخل بالنسبة لأعضاء الصفوة القديمة من خلال تعدد أنشطتهم الاقتصادية كأعضاء في الطبقة الثرية في القرية على ما أشرت في مكان سابق من هذا الفصل . وفي نفس الوقت فإن أعضاء الصفوة الجديدة لا تنتهي لهم الفرصة لهذا التعدد في النشاط . وإن مارس بعض أعضاء الصفوة الجديدة نشاطين فإن وظيفته تكون أحد هذين النشاطين ، واستثمار قطعة صغيرة من الأرض هي النشاط الثاني . ولقد تأكد لنا من خلال الجدول السابق أن معظم من يملكون أرضا من الصفوة الجديدة يمتلكون خيارات صغيرة أقل من ثلاثة أفدنة بل أن بعضهم لا يمتلك إلا أقل من فدان أو لا يمتلك على الإطلاق . ويوضح لنا الجدول التالي توزيع أعضاء الصفوة القديمة والصفوة الجديدة وفقا لتنوع أو عدم تنوع مصادر الدخل (سنحصر هذه المصادر في : الأرض ، النشاط التجاري ، ملكية أدوات الإنتاج ، ملكية السيارات الأجرة ، ملكية المواشي وتربية النحل ، وأخيرًا الوظيفة الحكومية) .

جدول رقم (٤)

مصادر الدخل	للقرية الاولى		للقرية الثانية		المجموع
	صفوة قديمة	صفوة جديدة	صفوة قديمة	صفوة جديدة	
مصدر واحد	—	٢	—	١	٣
مصدران	٩	٤	٤	٦	٢٣
ثلاثة مصادر	٧	—	١٣	—	٢٠
اربعة مصادر	٥	—	٢	—	٧
خمسة مصادر	٤	—	٤	—	٨
المجموع	٢٥	٦	٢٣	٧	٦١

ويكشف الجدول السابق عن أنه لا يوجد بين الصفوة القديمة أى شخص له مصدر واحد للدخل ، بل أن معظم أعضاء هذه الصفوة في القريتين لهم مصادر متعددة تتراوح بين ثلاثة وأربعة وخمسة مصادر (بلغ عدد أعضاء الصفوة القديمة في القريتين داخل هذه الفئات ٣٥ عضواً بنسبة ٥٧٧٪ من مجموع أعضاء الصفوة القديمة والجديدة ، وبنسبة ٧٥٪ من مجموع أعضاء الصفوة القديمة في القريتين) . وللباقي وعددهم ١٣ عضواً في القريتين مصدران للدخل ، ولا يوجد أى فرد من أعضاء الصفوة القديمة له مصدر واحد على ما أشرت قبل قليل . وبالمقارنة فإن أياً من أعضاء الصفوة الجديدة لا يتعدى المصدرين ، بل أن منهم ثلاثة في القريتين ليس له إلا مصدر واحد .

وبالرغم من أن الوظيفة تعد مصدراً للدخل ، إلا أنها تعد أيضاً أحد مصادر القوة حيث تمنح صاحبها قدراً من السلطة . فالذين يشغلون وظائف

من أعضاء الصفوة ترتبط أعمالهم بايقاع الحياة اليومية في الريف ، فهم يعملون كمدرسين في مدرسة القرية أو في الجمعية الزراعية أو الوحدة المحلية .
بل ان بعض هذه الوظائف ليست موجودة في القرية . وهي في هذه الحالة تصبح أكثر تأثيراً من الوظائف التي توجد في القرية ، حيث يقوم أصحاب هذه الوظائف بتسهيل الخدمات للفلاحين ، ويعملون بمثابة حلقة الوصل بينهم وبين الوظيفة (٨) . ويكشف الجدول التالي عن توزيع أعضاء الصفوة حسب المهنة .

(٨) يجب ألا يتبادر الى الأذهان ان الوظيفة في حد ذاتها تعد مصدراً للقوة ، فهي لا تعمل بمعزل عن العوامل الأخرى خاصة العوامل الاقتصادية . ولا شك أن الوظائف تتدرج حسب أهميتها وحسب درجة السلطة التي ترتبط بها . وتجدر الإشارة الى أن الفلاحين ينظرون الى الوظيفة الحكومية على أنها مصدر للسلطة وليست مجرد دور يؤدي . وتنسحب هذه النظرة على شاغل الوظيفة نفسه .

جدول رقم (٥)

المينة	القرية الاولى		القرية الثانية		المجموع
	صفوة قديمة	صفوة جديدة	صفوة قديمة	صفوة جديدة	
مزارع	١٢	—	١١	—	٢٣
ناظر / مدرس	٢	٢	٥	٤	١٣
موظف	٦	٢	٥	٣	١٦
مهامي/مهندس زراعي	—	١	١	—	٢
وظائف ادارية	٢	—	—	—	٢
أعمال حرة	٣	—	—	—	٣
عامل	—	١	١	—	٢
المجموع	٢٥	٦	٢٣	٧	٦١

وتكشف بيانات هذا الجدول عن أن أكثر من نصف الصفوة القديمة في التبريتين يعمل في وظائف ترتبط بحياة القرية كالعمل في الجمعية التعاونية والمدارس ، بل أن بعض المزارعين انفسهم لهم مهن ترتبط بالسلطة كشيوخ البلدة والعمدة . ولكن بالرغم من ذلك نجد أن الصفوة الجديدة تشغل وظائف مشابهة دون أن تمتلك رصيذا من القوة . وهنا تظهر أهمية ارتباط العوامل المختلفة بعامل السلطة ، فإذا اختفت هذه العوامل أو بعضها يفقد عامل السلطة أهميته ، حتى وإن كانت هذه السلطة سلطة العمدة أو الشيخ .

وهناك عاملان آخران قد يسهمان بجانب هذه العوامل في تدعيم عضو الصفوة ، وهما القرابة والعمل التطوعي . ونعني بالقرابة في هذا السياق شريئين : إما أن يكون عضو الصفوة ابنا لأحد أعضاء الصفوة القدامى (ابن .

عمدة أو ابن شيخ باد أو ابنا لأحد الافراد الذين مارسوا أثناء حياتهم تأثيرا بالغاً على حياة القرية) . وفى هذه الحالة غالباً ما يكون الأب متوفياً والابن هو الذى يمثل امتداده داخل القرية . وهنا تنعكس قوة الأب ودرجة احترامه على قوة الابن ودرجة احترامه بصرف النظر عن تشابه الابن مع الأب .

واما أن يمثل الشخص عائلته فى القرية ويتحدث باسمها . وبالرغم من وجود فروق فى نظام القرابة فى القريتين (٩) ، الا أنه ظهر اجماع هنا وهناك على أن بعض الافراد يترشحون فى المناصب السياسية لمجرد أن يكون « للعائلة شخص يمثلها أمام الناس » وفى الكثير من الأحيان يتنازل بعض المرشحين عن حقهم فى الترشيح لمجرد أن هناك قريباً لهم سوف يمثلهم جميعاً .

أما عامل العمل التطوعى فالمتصور به القدرة على المبادرة فى التطوع للعمل الخيرى خاصة جمع النقود لبناء مسجد . والشخص الذى يقوم بهذا النوع من النشاط ليس أى شخص ، وانما هو شخص يتمتع بمكانة داخل القرية . فالعمل الخيرى فى القرية - وكما كشفت الدراسة الميدانية - يمثل ضرباً من السلوك السياسى الذى يدعم موقف الصفوة ، ويكسبها مزيداً من القوة ويعمل على استمرارها ، فضلاً عن أنه يدعم رموز المكانة الخاصة بالطبقة . فالتبرع بنقود لإنشاء أى شئ، أو لعمل أى شئ، لا يكشف عن اعتقاد - عند القروى - فى حب الخير بقدر ما يكشف عن اهتمامه بأن تبرعه سوف يجعله أكثر احتراماً وهدية فى نظر الآخرين . وهذا هو السبب فى أن التبرع يحاط فى الكثير من الأحيان

(٩) تتمثل هذه الفروق فى أن القرية الاولى تنقسم الى ثلاثة مجموعات قرابية غير دموية تقوم على أساس سياسى أكثر من الأساس الدموى ، فى حين تنقسم القرية الثانية الى عائلات دموية متعددة من ناحية تجتمع كلها تحت ثلاث « حصص » بثلاثة مشايخ قري (مشايخ القرى فى القرية الاولى عددهم ستة مشايخ) . أما الفرق الثانى فانه ينحصر فى أن النظام القرايى يقوم فى القرية الاولى على أساس التوازن وعدم سيطرة مجموعة على أخرى ، فى حين تكشف القرية الثانية عن ضرب من عدم التوازن بين المجموعات القرابية بحيث نجد أن أحد العائلات لها ثقل سياسى واجتماعى أكثر من العائلات الأخرى .

يقدر من الدعاية ويصبح موضوعا للثقافة الشفاهية المتداولة لفترة ، كما أن للتبرع قد يتم - في بعض الأحيان - علانية وأمام حشد من الناس (١٠) .
وواضح من هذا الحديث المختصر عن عامل القرابة والعمل التطوعي أنهما لا يعملان في فراغ ، بل أنهما يكملان العوامل الأخرى ، ولا يأتي أى منهما قبل أى من العوامل السابقة خاصة العوامل الاقتصادية .

وتعمل كل هذه العوامل مجتمعة على أن يسيطر أعضاء الصفوة القديمة على النطاق السياسى فى القرية على مناصب السلطة السياسية وعلى التنظيمات السياسية ، وأن تجد الصفوة الجديدة مشقة بالغة فى الوصول الى هذه التنظيمات ، هذا اذا وصل أحد افرادها فعلا . فالصفوة القديمة هى صاحبة القوة والنفوذ فى القرية وهى بذلك تسيطر على قنوات اتخاذ القرار الرسمية، وغير الرسمية فى حين تفشل الصفوة الجديدة فى تحقيق حتى مجرد نتائج شديدة على هذه القنوات . ويكشف عن هذه الحقيقة الجدول التالى الذى يوضح عضوية المنظمات الرسمية أو احتلال مركز سلطة سياسى داخل القرية أو احتلال موقع مؤثر دون عضوية أى من هذه المنظمات .

(١٠) لاشك أن ذلك يرتبط بالاطار الثقافى القائم الذى يطور صروباً خاصة من مستويات التقييم والحكم على الاشخاص . ومستوى التقييم الذى يظهر هنا هو ارتباط المظهرية بالتعبير عن الاستقرار المادى .

جدول رقم (٦)

العضوية أو الموقع	القرية الاولى		القرية الثانية		المجموع
	صفوة قديمة	صفوة جديدة	صفوة قديمة	صفوة جديدة	
عضوية مجلس جمعية زراعية	٤	—	٥	—	٩
مجلس محلى /					
اتحاد اشتراكى	٨	٢	١٢	٣	٢٥
حزب وطنى					
مركز سلطة (عمدة - شيخ)	٧	—	٤	—	١١
ثقل سياسى	٦	١	٢	١	١٠
لا ينطبق	—	٣	—	٣	٦
المجموع	٢٥	٦	٢٣	٧	٦١

ويكشف هذا الجدول عن مدى سيطرة الصفوة القديمة على المنظمات الرسمية ومراكز السلطة . فليس هناك من بين أعضاء الصفوة القديمة في القريتين من لم يشغل منصبا في هذه المنظمات أو المراكز ومن لم يتمتع بثقل سياسى . أما الصفوة الجديدة فان نصفها تقريبا في القريتين لم يشغل أى منصب رغم محاولات بعضهم الانضمام من خلال الترشيح ولكن كان نصيبهم الرسوب في الانتخابات .

وتكشف البيانات الواقعية التى عرضناها حتى الآن عن أن بناء المجتمع هو الذى يحدد أيا من الانفراد يصبح عضوا في الصفوة التى تمارس القوة

الحقيقية ، و اى الافراد يعيش على هامش هذه القوة بالرغم من محاولتهم الدائبة لاكتسابها . فالبناء الاجتماعى يفرز من داخله - وعن طريق اقوى الجماعات الطبقيه داخله - صفوة تعمل على تدعيمه واستمراريته على النحو الذى يدعم مصالحها ويدعم استمرارها فى تملك زمام القوة . والصفوة التى يفرزها البناء على هذا النحو ليست جماعة لها سمات مستقلة عن البناء ذاته ، بل ان تركيبها يعبر عن تركيب البناء . فاذا كان البناء يقوم على تعددية اقتصادية وثقافية ، فان الصفوة التى تساهم بدور فى تدعيم البناء تتميز هى الأخرى بالتعدد . فهى متعددة الانشطة ، متعددة الوظائف ، غير متجانسة التركيب . وأعنى بذلك أنها تضم أفرادا من كبار السن ، ومن متوسطى السن ، ومن الشباب ، كما أنها لا تتجانس من حيث المظهر الثقافى فهى تضم أفرادا تختلف مظاهرهم الثقافية من حيث اللبس وأسلوب الحياة . فالتأمل للأعضاء الذين يكونون جماعات الصفوة فى القريتين يجد أنهم يمثلون بحق صورة للتطور الاجتماعى للمجتمع المصرى . فهناك أولا جماعة العمد والمشايع ذات التاريخ القديم ، وهناك ثانيا جماعة كبار السن من ذوى النفوذ الاقتصادى والتأثير السياسى وهم يرتبطون بالجماعة السابقة مباشرة ، وهناك ثالثا صفوة الطبقة الوسطى بعد تغيرات عام ١٩٥٢ خاصة فى فترة الستينيات وتتكون من بعض المتعلمين ومتوسطى الفلاحين ، وهناك أخيرا الصفوة البرجوازية من الاغنياء الجدد الذين أفرزتهم السبعينات . غير أن الذى يجمع هؤلاء جميعا هو الموقف السياسى والاجتماعى .

ومن ناحية أخرى ، فان البناء الاجتماعى يفرز صفوة أخرى من داخل الفئات الاجتماعية التى لا يمكنها التنظيم الاجتماعى القائم من تحقيق قوة اقتصادية وسياسية . هذه هى الصفوة الجديدة التى تحاول أن تخرق حاجز القوة القائم وترغب فى أن تفعل شيئا من أجل البناء ، ولا أقول ترغب فى تغييره . ومن الطبيعى ألا يمنح البناء الاجتماعى هذه الصفوة أى قوة سياسية الا بالقدر الذى يكشف فيه عضو الصفوة الجديدة عن ميل نحو

المساومة مع الصفوة الأخرى المسيطرة على ما سنوضح في الفصلين القادمين بالتفصيل . على أن تأثيرهم موجود على أى حال . وهم يكتسبون من ميلهم الى العمل السياسى وسعيهم الى القوة أو انتقاد سلوك الصفوة القديمة . والصفوة الجديدة - بتشكيلها على هذا النحو - ليس لها القوة الاقتصادية التى تتمتع بها الصفوة القديمة : وليس لها نشاط متعدد أو مصادر متعددة للدخل . غير أن ذلك لا يعنى أنها أكثر تجانساً من الصفوة القديمة . حقيقة أن تركيبها يكشف عن تجانس من حيث الوضع الطبقي والموقف المعارض ، ولكنها تتباين فى داخليتها من حيث الموقف السياسى . فالصفوة الجديدة كما هى موجودة الآن تضم جماعتين غير متجانستين الى حد بعيد . ويمكن ان نسم الجماعة الاولى بأنها جماعة علمانية (١١) (الصفوة الجديدة التى ظهرت فى الستينات وظلت على موقفها أو بدأت فى التحول عن هذا الموقف) ، والجماعة الدينية التى أفرزتها حقبة السبعينات والتى بدأت تأخذ مكانها كصفوة جديدة فى الوقت الذى بدأت فيه الجماعة العلمانية فى التحلل على ما سيتضح فى فصل قادم .

وتجدر الإشارة ايضا الى أنه يمكن أن نميز داخل كل صفوة من هاتين الصفوتين بين صفوة أساسية و صفوة تابعة . فلا يمكن القول بأن أعضاء الصفوة القديمة على نفس القدر من القوة . ففى كل من القريتين بعض الأعضاء - القلائل - فى الصفوة القديمة ليس لهم مكانة اقتصادية عالية مثل باقى أعضاء الصفوة . وهم ينضمون الى الصفوة بحكم مواقعهم السياسية التى يؤهلها لهم أعضاء الصفوة من الأقوياء . ووجود هؤلاء التوابع له مبرراته السياسية - من وجهة نظر الصفوة - وله أهدافه والتى أهمها سد الطريق

(١١) استخدام كلمة علمانية فى هذا السياق يتحفظ شديد ، فهى لا تكشف عن موقف أيديولوجى بقدر ما تعبر عن اتجاه غير دينى بصرف النظر عن علمانية أو عدم علمانية هذا الاتجاه .

أمام الصفوة الجديدة التى تود احتلال هذه الاماكن (١٢) . والتابع داخل الصفوة القديمة غالبا ما يكون تابعا أيضا من الناحية الاقتصادية لاحد الاعضاء الاقوياء (حيث يكون نشاطه الاقتصادى معتمدا على نشاط الآخر أو تكون مهنته مرتبطة بوجود الآخر) ، أو أحد أقاربه . أما التبعية داخل الصفوة الجديدة فانها تبعية من نوع آخر . انها تبعية فكرية أكثر منها تبعية اقتصادية . فقد اتضح أننا يمكن أن نميز داخل جماعتى الصفوة الجديدة بين قائد أو أكثر من قائد وبين تابع لهذا القائد أو هؤلاء القادة . فموضوع الفكرة والهدف هو المحك الذى تقوم عليه التبعية .

إذا كان التحليل السابق قد نجح فى أن يكشف لنا عن بعض الخصائص الموضوعية لجماعات الصفوة وعن العوامل الموضوعية المؤثرة فى تركيبها وعن نوعية هذا التركيب ، فاننا نكون قد وضعنا ايدينا على أهم محركات التوافد الى الصفوة القديمة، وأعنى امتلاك الثروة والسلطة . ولقد كشف الواقع فى القريتين عن أن كلاهما يودى بالضرورة الى الآخر . فمن خلال تتبع بعض الحالات اتضح أن تزايد امتلاك الثروة يودى الى مزيد من السلطة (والمقصود بها هنا الاستخدام الشرعى للقوة) وبالتالى مزيدا من القوة السياسية . فالشخص الثرى يصبح أكثر قدرة على ترشيح نفسه والانفاق على الدعاية واكتساب ود الآخرين (خاصة الانتخابات التى تأخذ الفرد الى موقع سلطة أعلى من مستوى القرية) ، بل أن أعضاء الصفوة الجديدة غالبا ما يواجهون صعوبات عندما يرشحون أنفسهم لأنهم لا يمتلكون من مصادر الثروة ما يضمن عليهم هيبة بين الناس . ومن الناحية الأخرى فقد كشف تتبع بعض الحالات عن أن الشخص الذى يحتل مركز سلطة غالبا ما يستخدمها لتحقيق أغراض

(١٢) هذا فضلا عن أنهم سوف لا يتخذون أى موقف معارض فى وجه العضو أو الاعضاء التابعين لهم . وهم يعملون بمثابة « سد خانة » دون أن يكون لهم تأثير يذكر فى عملية صنع القرار ذاتها .

مخصصة تعود عليه بالثروة كان يسعى لترخيص محل تجارى أو مستودع
دقيق أو الحصول على تسهيل فى الحصول على بضائع يتاجر فيها .

غير أن ذلك يثير فى الذهن تساؤلا هاما : اذا كانت الجوانب الاقتصادية
لبناء الاجتماعى الريفى هى التى تشكل العامل الحاسم فى فرز أعضاء الصفوة
السيطرة لماذا تستمر هذه السيطرة بالرغم من وجود معارضة ولو طفيفة لها ؟
لا شك أن المسألة ترتبط - فى أحد جوانبها على الأقل - بمستوى وعى
انجماهير ، وبمستويات التقييم الثقافى الموجودة لديهم ، أعنى مستويات
تقديمهم للصفوة ، ودور الصفوة ذاتها فى تدعيم هذه المستويات ، التى
تعمل على ما يبدو كأحد وسائل استمرار الجماعة المسيطرة . ويحتم علينا
ذلك أن نفصل الحديث عن تصورات الجماهير عن الصفوة ، وعن تصورات
الصفوة عن أنفسهم . فمن شأن ذلك أن يكشف لنا عن دور العوامل الثقافية
والأيديولوجية فى تدعيم عملية التوافد الى الصفوة وفى استمرارها ، فضلا
عن أنه سوف يلقى الضوء على نوعية الوعى السائد لدى الجماهير .

لنبدا أولا بتصورات الجماهير عن الصفوة . وهنا نجد أن تصورات
الانفراد للرجال الذين يسلّمون لهم زمامهم تأتى على النحو التالى : أنهم
أكثر الناس حكمة وأكثر الناس احتراما ، وبيوتهم ملتقى الجميع ومكان
حل النزاعات . ولدى الفلاحين اعتقاد بأن هناك من هم أكثر منهم قدرة
على التعامل مع مشكلات الحياة ، ومن هم أدرى بمجريات الأمور وأقدر على
فهمها . ويؤمن معظم الناس بأن الحياة قائمة على مبدأ التدرج ، ولا توجد
هنا فروق جوهرية بين المتعلمين وغير المتعلمين . وتعكس آراء الاعاى فى
تريف بعض خصائص الصفوة من وجهة نظرهم . فقد كشفت الملاحظة
والمقابلات التى أجريتها مع بعض الفلاحين عن بعض المعايير التى يقيمون
من خلالها « أولى القوة » ، ويمكن أن نكتشف منها بسهولة خصائص الصفوة
من وجهة نظر الفلاحين .

(أ) الشهامة أو الرجولة : فيقال للفرد في القرية الاولى أنه « رجل » ، بمعنى أنه يتحمل المواقف ويستطيع أن يتصرف فيها بحزم ، فضلا عن أنه يضحى بالمال والجهد في هذه المواقف . وفي القرية الثانية يقال : إن هذا رجل « شهم » للتعبير عن نفس هذه المعاني . وفي مقابل هذا يوصف الشخص الخامل في القرية الاولى بأنه « مثل الرجل القدامية لا تسك ولا ترفس » (١٢) .

(ب) القدرة على حل المشكلات التي تظهر في الحياة اليومية للفلاحين . ويعنى ذلك القدرة على الوساطة بين الناس ، والمساهمة في حل المشكلات التي تعرض لهم . ويطلق على الشخص من هذا النوع في القرية الاولى « رجل قعدات » أو « رجل بلاد » . أما في القرية الثانية فيطلق عليه « ديار » (الاشتقاق هنا من الدار والمقصود أن لديه القدرة على الجلوس لحل المشكلات) . والشخص من هذا النوع لا يقتصر دوره على المساهمة في حل مشكلات قريته وإنما يشارك أيضا في بعض المشكلات التي تظهر في القرى الأخرى . ويضفى الناس على الأشخاص الذين يمتلكون هذه القدرة بعض الصفات فهناك الشخص « الندر » - الذى لا يوجد له مثيل إلا فى النادر - وهناك الشخص « الفهلوى » ، وهناك الشخص « الرزين » وهناك الشخص « العاقل » ، وهناك الشخص « الفنجري » ، وأخيرا هناك الشخص « الذى يقدر يوزن القعدة » .

(ج) القدرة على تقديم خدمات شخصية أو التعامل مع المستويات الرسمية العليا وتخليص الأهالى من « الورطات » فى الوقت

(١٢) المقصود هنا رجل الحيوان الامامية التى لا يستطيع ان يستخدمها فى « الرفس » أو السك « درجة عنيفة من الرفس » .

المناسب . ويحكى الفلاحون هنا عن مواقف كثيرة استطاع فيها بعض الافراد (من الصفوة) الاتصال بالامور لكى لا يجعلهم يقضون ليلة فى قسم البوليس ، او الاتصال بكاتب التجنيد لكى يؤجل طلبهم الى التجنيد الى حين الزواج او لفترة معينة ، او تسهيل استخراج رخصة قيادة ، او بطاقة شخصية ، او بطاقة تموين وغير ذلك . ومنطق الفلاحين فى ذلك ان هناك « عين تتكرم لها ألف عين » وايضا « عشان الورد ينسقى العليق » . ويعتقد الناس فى قدرة هؤلاء على التحدث مع الموظفين الرسميين بطريقة تدل على الشهامة ، وبحيث يحترمه الطرف الآخر . ويحكى الفلاحون الكثير من القصص عن هذه المواقف ، ومعظمها منقول من أعضاء الصفوة أنفسهم ، متبالغ فيها فى الكثير من الاحيان .

(د) ومع ذلك ، فان لدى بعض الناس اعتقادا بان هناك بعض الناس الذين يتعيشون على حل المشكلات أو الذين يتفرغون لهذا العمل أو يهوونه . وهذا التصور يوجد فى الغالب لدى بعض الافراد الذين يعتقدون أن لديهم من الخصائص ما لدى الصفوة وأن لا فرق بينهم على الاطلاق من الناحية الشخصية . واذا كان هناك فرق ، فانه يكمن فى ان أعضاء الصفوة « ناس فاضية » أو أنهم « اخفوا على كده » . وقد يتطرق البعض فى حكمه - كما حدث بالفعل فى بعض الاحكام التى سمعتها - الى حد القول بأن هؤلاء الناس يتعيشون على المشاكل أخذا بالقول الشهير « البلد اللى مفهاش منقرة ملناش عيش فيها » (١٤) وتدوّن رسم بعض

(١٤) المنقرة مشنقة من « النقار » ، و « النقار » فى القرية الاولى هو اللجاج أو الخلاف . وهذا القول ينسب الى العربى (البدوى) الذى يتعيش =

الناس أعضاء الصفوة بأنهم « الناس بتنوع الانتخابات » أو « هواة الانتخابات » . وكان هناك بعض الناس الذين لهم قدرة خاصة على المناورة فى الانتخابات وعلى تحمل المشقات الخاصة بها .

(ه) ويدرك بعض الناس مدى تمتع أفراد الصفوة بالاستقرار الاقتصادى وتملكهم لزمام السلطة فى القرية . فهناك من وجهة نظرهم ناس « أصحاب بلاد » . وتعنى هذه الكلمة الأخيرة أنهم المتحدثون باسم القرية ، وأنهم واجهتها أمام القرى الأخرى ، وأنهم يملكون السلطة فيها منذ أمد بعيد سواء هم أو أجدادهم . ويستخدم الناس فى القرية الأولى كلمة « الجدور » لتشير إلى أكثر الناس أصالة وأكثر الناس استقرارا فى الحياة وأكثرهم حظوة فى الرزق ، وإن كانت « الجدور » توحى بأنهم أصحاب البلد أو أعمدتها . ولكن الكلمة لا تستخدم بهذا المعنى على إطلاقه ، وإنما ترتبط بمعانى الأصالة والاستقرار ويسر الحال . ويقول البعض فى المقابل - ومع التغيرات التى طرأت على القرية فى العشرين سنة الماضية - « الجدور خوخت » أى أصابها الغف والتحلل . وبذلك أصبحت الكلمة تستخدم فى الجِد والهزل فى آن . أما فى القرية الثانية فإن هذه الكلمة لا تستخدم ، ويستخدم بدلا منها « الأسرة المألكة » أو « الأسرة الحاكمة » أو « العيلة المألكة » للإشارة إلى العائلة التى تسيطر أو التى كانت مسيطرة . وتستخدم هذه المسميات لتشير إلى ما تشير إليه كلمة « الجدور » وكلمة « الجدور خوخت » حيث ترتبط بالجديّة فى بعض الأحيان والهزل والسخرية فى أحيان أخرى . ويشير ذلك إلى التغير الذى

= على التحكم فى المجالس العرفية : فليس له عيش إلا فى البلد الذى بها مشكلات يمكن أن يحكم فيها .

قد يكون طرأ على تصور الفلاحين لعلاقات السلطة والقوة
القائمة .

ويبدو أن بعض الخصائص التي تضيفها الجماهير على الصفوة منقولة
لديها من الصفوة ذاتها ، ومن خلال الثقافة الشفاهية التي تجنح إلى المبالغة .
فلدى أعضاء الصفوة أنفسهم اعتقاد بأنهم أكثر من الآخرين قدرة على حل
المشكلات ، وأكثر منهم قدرة على التعامل مع السلطات العليا . ولقد حكى
أعضاء الصفوة في القريتين قصصا عن مواقف لهم مع الضابط وطبيب الوحدة
ومأمور المركز . ومحور هذه المواقف التدخل لحسم مشكلة تتعلق بأحد أفراد
القرية ، أو تخليصه من « ورطة » وقع فيها ، أو اعجاب الطرف الآخر به
وبجرائته (١٥) . كما يتحدث أعضاء الصفوة كثيرا عن المتاعب والمصاعب التي
يلاتونها في الخدمات التي يقدمونها للناس وللقرية بصفة عامة ، قائلين في
كل مناسبة « يعنى احنا واخدين الا التعب » ، أو « احنا دايما بندفع من
جيوبنا » . وكثيرا ما يكون لكل عضو من أعضاء الصفوة مجموعة من الناصرين
أو الثرابيع (غالبا من أصحابه أو أقربائه من ذوى المستويات الاقتصادية
الادنى) . وهم غالبا ما يتحدثون بكل ما يتحدث به بومى أو بغير وعى
وينقلونه إلى الناس ، ويتشددون بأقواله ، ويفخرون بأنهم على صلة وثيقة
به ، أو أنهم من أقاربه . وفي معظم الأحيان يبالغون فيما يقولون ، ويقارنون
بينه وبين نظرائه ، ويسردون مواقف له في مقابل مواقف للآخرين لكي
يخلقوا تبريرا لما يصفونه به . ولا شك في أن هذا يرتبط بمستويات الوعي
لدى الناس في القرى والدور الذى تلعبه هذه الثقافة الشفوية في تزيينه .

ولا تخلو تصريحات الصفوة الجديدة عن أنفسهم من بعض هذه الأمور ،
غير أن تصورهم عن أنفسهم يتجه نحو تأكيد كونهم أفضل من الصفوة

(١٥) ويبالغ الفرد من الصفوة في هذه الروايات ، وهي تنال على مسمع من
الناس الذين يوافقونه على ما قال وإن كان بعضهم يعرف بأنه مبالغ
ويصرح بذلك في غيابه .

التقديمية وأكثر كفاءة وإخلاصاً • فهم ينتقدون كبار السن لأنهم « عفى عليهم الزمن » وإن كانوا يكونون لهم احتراماً • وهم ينتقدون نظراءهم من الصفوة القديمة لأنهم استغلاليون ووصوليون لا تهمهم مصلحة الناس بقدر ما تهمهم مصالحهم الشخصية كما أنهم يحملون بعض التصورات التي تطورها القطاعات المستفيدة من الجماهير عن الصفوة المسيطرة من حيث أنهم ينظرون إلى بعض أعضائها على أنهم يتخذون من سيطرتهم على المنظمات الرسمية أسلوب حياة أو بالأحرى « يتعيشون عليها » •

ويمكن أن نستخلص من العرض السابق بعض النتائج فلخصها فيما

يلي :

١ - أن بعض تصورات الجماهير عن الصفوة تكشف عن ضرب من الوعي الزائف ، وعن مستويات مشوهة للتقييم الثقافي •

٢ - أن التشابه بين حكم الجماهير على الصفوة وبين حكم أعضاء الصفوة عن أنفسهم يكشف عن وجود قنوات ثلاثية الاتصال الشخصي توجهها الصفوة المسيطرة لتدعيم هذا الوعي الزائف ، كما يكشف من ناحية أخرى عن أن كليهما يخضع لنفس المؤثرات الثقافية •

٣ - يترتب على هذا الحقيقة التي مفادها أن هذه الأحكام تمثل جانباً من نسق ثقافي يتعايش مع أشكال الإنتاج القائمة وما تفرضه من علاقات للقوة ، ويساعد على استمرار هذه الأشكال وتلك العلاقات • فالاعتقاد بأن هناك أشخاصاً أفضل وأكثرنا من نظرائهم ، وما تحاط به أفعال الصفوة من تهويل ومبالغة يؤدي إلى سيطرة طويلة الأمد لافراد معينين على النطاق السياسي ، أو بعبارة أكثر حقة يؤدي إلى عدم أحداث تغيير جوهري في بناء القوة القائم بصرف النظر عن الافراد •

٤ - يؤدي ذلك إلى هامشية محاولات الصفوة الجديدة نحو تغيير هذا

البناء ، أعنى بناء القوة • فليست الصفوة القديمة وحدها هي التي تقف في وجه الصفوة الجديدة ، وإنما تقف بجانبها قطاعات عريضة من الجماهير ذات الوعي الزائف •

والسؤال المطروح الآن - وهو سؤال تفرضه المناقشة السابقة - هو : ما هي نوعية الوعي السائد عند جماعات الصفوة ؟ نجيب على هذا السؤال في الفقرة القادمة •

ثالثا : الوعي الاجتماعي لدى جماعات الصفوة

لا شك أن الوعي بالمصالح يمثل أحد العناصر الهامة في البناء الثقافي القائم • ويمثل وعي الصفوة أهمية خاصة نظرا للدور الذي يمكن أن يلعبه في إعادة إنتاج المجتمع • والواقع أننا لا نتصور هنا فصلا بين الجوانب الثقافية للمجتمع وبين مستويات الوعي ، فتلك الأخيرة ما هي إلا أحد الجوانب الثقافية السائدة • وبناء على ذلك فإنه من المتوقع أن تتشكل مستويات الوعي في ضوء العناصر الثقافية السائدة • غير أن ذلك لا يطرح فكرة انفصال الوعي والثقافة عن الأطر الاقتصادية السائدة ، والتركيب الطبقي السائد • غير أن ذلك لا يهدف أيضا إلى تأكيد أن الوجود هو الذي يحدد مستوى الوعي ، فتلك معضلة نظرية ومنهجية تحتاج إلى حسم في ضوء الخصوصية التاريخية للمجتمع المصري يتجاوز أهداف الدراسة الحالية •

غير أن المشكلة الحقيقية في دراسة الوعي في الريف هي مشكلة تصنيف مستويات الوعي ، خاصة تلك التي تنتشر بين فئات الصفوة المختلفة • ولا تدعى هذه الدراسة لنفسها تقديم حل لهذه المشكلة • ولكنى سوف أحاول أن أصنف مستويات الوعي لدى فئات الصفوة في شكله الامبيريقى دون وضعه في « مقولات » محددة • على أن ذلك لا يجب أن يجعلنا نتجاهل الحديث عن سمة أو مجموعة من السمات التي تميز هذا الوعي ، والتي تنتج عن وضعه في أشكاله الامبيريقية •

ولقد كانت الوسيلة المنهجية للكشف عن أشكال الوعي الاجتماعي عند فئات الصفوة المختلفة هي أن نتعرف - من خلال المقابلات والمناقشات التي أجريت مع أعضائها - على وجهة نظرهم في أسباب المشكلات التي يعاني منها المجتمع المصري بعمامة والريفى بخاصة ، وتصورهم لحل هذه المشكلات .

ولقد مكنتنا هذه الوسيلة من أن نتجاوز التعريف الذاتى للوعى الذى يربط بين الوعى وإدراك الفرد للمواقع الطبقيه داخل التدرج الاجتماعى وبدرجة اكتسابه للثقافة الحديثة (وما يرتبط بها من انفتاح على العالم وتقمص وجداني) . بل ان النتائج التى توصلنا اليها هنا تشير الى أن الثقافة الحديثة - بالشكل الذى تكتسب به - لا تساهم فى تحديد درجات الوعى بقدر ما تساهم فى طمسها . وبناء على ذلك فان الوعى الذى نقصده هنا هو الوعى بالمصلحة ، وبالموقف الطبقي فى مقابل الطبقات الأخرى ، وبإدراك العوامل الفاعلة فى البناء الاجتماعى .

والافتراض المطروح هنا هو أن وعى الصفوة يتسم بعدم التحديد والوضوح . والمقصود بعدم التحديد هنا أنه متناقض وباهت بحيث يصعب تصنيفه وفق أى مقولات معروفة للوعى الا بشكل تعسفى . ويرتبط ذلك بخصوصية البناء الاجتماعى للمجتمع الريفى الذى يعرف شكلا من أشكال التعددية الاقتصادية والثقافية ، والذى يخضع بصفة مستمرة لأشكال متعددة ومتناقضة من أساليب الدعاية والمذهبة السياسية النازلة من السلطة المركزية، عبر قنوات وسائل الاعلام . فمن المتوقع ألا يكون الشخص الذى يتعرض لمؤثرات مختلفة ومتناقضة رؤية محددة ، خاصة اذا كان من مصلحته استمرار الأمور على ما هى عليه .

وفى محاولة للتدليل على مدى صدق هذا الافتراض ، نعرض فيما يلى لبعض الاشكال الامبيريقية للوعى عند فئات الصفوة كما كشفت عنها الدراسة الميدانية ومن خلال الاسلوب المنهجى السابق الاشارة اليه .

نستطيع أن نميز داخل جماعة الصفوة القديمة بين أربع جماعات تحمل كل منها شكلا معيناً من أشكال الوعي :

١ - جماعة العمدة والمشايخ وكبار السن والفلاحين المتأثرين بهم أو الذين يعتبرون امتداداً لهم . ويتشكّلت وعى هؤلاء بين حبهم للمجتمع القديم ومعيشتهم فى مجتمع مغاير . فبعضهم يرى أن الدنيا قد تدهورت وأنها نعيش فى « الزمن الذى تحدث عنه حسان اليمانى » (١٦) . أى آخر الزمان الذى يصبح فيه النذل سيداً . فقد تعلم « السفلة » العلم ، وأصبح كل شخص له رأى . هذا فى رأيهم هو سبب كل المشكلات التى يعانى منها المجتمع . أما تصوراتهم لحل هذه المشكلات فانه يكشف عن خيط من الرجوع للدين والأصالة « أيام زمان الى ما تتعوضش » . غير أن هؤلاء قد أكدوا أيضاً على مسائل أخرى تكشف عن مدى تأثرهم بتوعية الثقافة الحديثة السائدة . من ذلك مثلاً القول بأن تطوير القرية يتم من خلال « التوعية » أو من خلال « رصف شوارع القرية وتنظيمها » ، واختيار من يمثلون الفلاحين « من نوعيات معينة » .

٢ - المتعلمون - أو غير المتعلمين - من ذوى الاتجاه الدينى . وهؤلاء يرجعون معظم مشكلات المجتمع الى ترك الدين وترك تعاليم القرآن والسنة . ولكن بسؤال هؤلاء عن امكانية تحقيق ذلك اتضح أن بينهم تدرا من التباين يتأرجح بين رؤية تظهر فيها الايديولوجية الدينية واضحة ، ورؤية تخلط بين الدين الشعبى والدين الرسمى وبعض الأمور الحديثة . وليس من قبيل الصدفة أن نجد عند هؤلاء حنيناً الى الماضى مثل الجماعة السابقة ، الأمر الذى يجعلهم أكثر توافقاً معهم فى سلوكهم وعلاقاتهم .

٣ - المتعلمون : وهم أكثر الفئات من حيث عدم التحديد وعدم الوضوح ربما

« (١٦) كما وُلِدَ فى السيرة الشعبية لاجى زيد الهلالي .

لأنهم خضعوا أكثر من غيرهم لمؤثرات عديدة متناقضة • فنجدهم يتشنتون بين رؤى متعددة • فهناك بعض المتعلمين الذين يفتنون — بشكل أو بآخر الى الفئة التي كان لها وزن سياسى فى حياة القرية فى الماضى • وبرغم صغر سنهم وعدم خبرتهم بهذا الماضى الا أنهم أقرب الى الفئة الاولى من حيث مستوى وعيهم • فهم يرون أن السبب الحقيقى فيما يعانى منه الريف من مشكلات يرجع الى أن الزمان غير الزمان • فقد تقلص دور أولاد الناس ، ، و الناس كثرت ، ، وتحولت الدنيا الى « سيرك » • ومع ذلك فإنهم يعتقدون أننا نعيش زمنا أفضل من الزمن السابق (عهد عبد الناصر بالتحديد) الذى أتى لنا بكل هذه المشكلات • والطريق الى التغلب على مشكلات المجتمع وتنمية الريف هو أن تعطى المسؤولية الى « أولاد الناس » ، لأن الشخص الذى ينحدر من « أصل كويس » غير الشخص الذى ينحدر من « أصل راطى » • ولكن هناك بعض المتعلمين الذين لا ينتمون الى هذه الفئة ولكنهم اكتسبوا سلطة ونفوذًا خلال السنوات الماضية • وهؤلاء لا يكشفون عن وعى محدد • فتفكيرهم مشتمت بين الوعى الدينى والوعى المكتسب من وسائل الاعلام • فهم تارة يقولون أن السبب فيما نعانى منه من مشكلات هو « عدم الالتزام بالدين والاخلاق » ، وتارة يقولون أن السبب هو أن « القيادات الشابة لا تجد مكانها الصحيح » ، وتارة ثالثة يتحدثون عن « الحقد » الذى استشرى بين الناس ، وتارة رابعة عن انعدام « الضمير » • وبعض هؤلاء يرى أنه لا توجد مشكلات فى القرية الا مشكلة « معاناة المونثيين » • ومال بعض هؤلاء الى الربط بين هذه المعاناة وبين ما مرت به مصر من حروب ، أو موقف البلاد العربية بعد اتفاقية السلام حيث قطعت المساعدات ، والتي عوضت أمريكا جزءا منها • ومن المتوقع أن ينعكس هذا المستوى من الوعى على تصورهم لطول المشكلات الخاصة بالريف • فهم أكثر ميلا الى فكرة « النوعية » سواء السياسية أو الدينية ، خاصة وان التليفزيون

قد أصبح منتشرا فى القرية الآن • ولكن بعضهم يقول « احنا زعقنا من التوعية ، عايزين الضمير ، وعايزين ان الشباب يشترك ويتحمل المسؤولية لأن هم الامل والمستقبل » • وقد تحدث أحد أعضاء الصفوة من القرية الثانية عن ضرورة « التوفيق بين جهود الشباب وحماسهم وخبرة كبار السن لأن فيهم الخير والبركة » هكذا يظهر مستوى الوعي عند هذه الفئة اقل تحديدا وأكثر تناقضا •

٤ - الاغنياء الجدد : هذه الفئة من الصفوة القديمة أكثر وعيا من أى فئة أخرى بمصالحها الطبقية ، ويتوافق موقفها توافقا شبه تام مع موقف « صفوة القوة » على المستوى القومى • فهم يعتقدون أن الأمور تسير على ما يرام وأنه لا توجد مشاكل كبيرة ، وأن الناس الآن « مبسوطه » أكثر من أى وقت مضى • وهم يؤكدون هذا من خلال ضرب أمثلة بارتفاع أجور العمال الزراعيين الذين يحصل كل منهم على جنيه أو أكثر فى اليوم ، وكذلك بوجود فرص للعمل والكسب • ولكن الدنيا لا تخلو من مشاكل على أى حال • والمشكلة الأساسية من وجهة نظرهم « أن فيه شوية حقد بدأوا يظهرها فى البلد » ، وأن فيه « شلة مش عاجبها أى حاجة » • ويعتقد هؤلاء أن أى معارضة لهم ولنشاطهم لا تنبع من مصلحة الطرف المعارض ، وإنما تنبع من « حقه » ومن « حبه للمعارضة من أجل المعارضة » • فقد قال أحدهم عندما قلت له أن المعارضة قد تنبع من مصلحة : « مصلحة ايه الحق موجد فى النفوس والناس بتعارض وخلاص » • وينطلق تصورهم لحل كل المشكلات من هذا الاعتقاد • لابد أن يترك الناس الحقد ، ولا بد أن يتسلحوا بالايمان ، وأن يفسحوا المجال للذى يريد أن يخدم وأن يتحمس • فلا يجب أن يتقدم بشكاوى كثيرة ، ولا يجب أن يروجوا للاشاعات غير الصحيحة • ويتحدث بعضهم عن ضرورة « نشر الوعي » من خلال التلفزيون والراديو • ويتحدث بعضهم أيضا عن ضرورة ضبط الاسعار ، وتسهيل الحصول على المواد التموينية •

والملاحظ من خلال هذا الوصف أنه بالرغم من أن وعى الصنفوة القديمة يعكس موقفها الاجتماعى ووضعها الطبقي ، إلا أنه غير محدد ، وغير متجانس . فيما يتعلق بفئاتها المختلفة . ويظهر عدم تحديده فى شيئين : الأول : أنه غير متجانس بالنسبة للفئات المختلفة ، وأحيانا بالنسبة للفئة الواحدة ، الثانى : أنه يتشكل فى جانب كبير منه عن طريق وسائل الاعلام ، هذا فضلا عن أنه يخضع لمظاهر تحيز عديدة ينبع بعضها من الثقافة السائدة وبعضها الآخر من الوعى الطبقي .

ولكن ماذا عن أشكال الوعى عند الصنفوة الجديدة ؟ لاحظنا خلال هذا الفصل أن الصنفوة الجديدة تنقسم الى فئتين : فئة علمانية وأخرى دينية . ونعرض فيما يلى لمستوى الوعى عند هاتين الفئتين كما ينعكس فى تصوراتهم عن المشكلات الاجتماعية للقرية وعن حلول هذه المشكلات :

١ - الجماعة العلمانية : خضعت الجماعة العلمانية من الصنفوة الجديدة لتغيير فى تركيبها الاجتماعى والفكرى خلال السنوات الماضية ، وهو موضوع سنفصل فيه الحديث فى فصل قادم من هذه الدراسة . ولكن نؤكد هنا أن هذا التغيير قد أثر على مستوى الوعى عند بعض أفرادها . وقد كشف نتيج مستوى الوعى عند هذه الفئة أننا يمكن أن نميز داخلها بين فئتين فرعيتين : فئة تكشف عن وعى محدد وإن كان يتصف بازدواجية ظاهرة ، وفئة لا تكشف عن نفس درجة التحدد والوضوح الايديولوجى .

بالنسبة للفئة الفرعية الاولى اتضح أن وعيهم يعكس موقفا ايديولوجيا راضحا . فعند سؤالهم عن أسباب المشكلات التى تعاني منها القرية تحدث البعض فى القرية الاولى عن الظلم الواقع على كاهل الفلاحين خاصة الفقراء منهم . كما تحدثوا عن الاهمال الذى تحظى به القرية . فلا أحد يهتم بالقرية ولا بمشكلاتها . والفلاحون عليهم أن يزرعوا ويحصدوا المحاصيل التى

تأخذها الجمعية دون عائد مجزى . كما تحدث أحدهم عن « الجهل ، والفقر والمرض » (١٧) . الذى يؤدى الى عجز الفلاح ويذهب أحد أعضاء الصفوة الجديدة فى القرية الثانية الى أبعد من ذلك عندما ذكر أن « الرأس مالية الوضيعة » هى السبب فى كل ما نعانى منه من مشكلات . فهى تتيح للشخص الثراء باى وسيلة حتى وإن كانت وسيلة غير مشروعة ، الأمر الذى يجعل بعض الأفراد القلائل يثرون من استغلال الناس . ولكن عندما نسال الأعضاء - الذين يكشفون عن هذه الدرجة من الوعى من الصفوة الجديدة - عن تصورهم لحل هذه المشكلات نجد أن رأيهم لا يتسق كثيرا مع رأيهم فى أسباب هذه المشكلات ، الأمر الذى يكشف بدوره عن ازدواجية الوعى عند هذه الجماعة . فقد أجمع هؤلاء فى القريتين على حل اصلاحي دينى مع اختلاف الوسيلة . ففى القرية الاولى التأكيد على دور رجال الدين المخلصين الذين يبرزون مشكلات المجتمع ومظاهر الخلل فيه . وهم على يقين من أن استمرار هذا النقد الاجتماعى الذى يقدمه رجال الدين (من أمثال الشيخ الشعراوى والشيخ عبد الحميد كشك) سوف يؤدى الى تغيير المجتمع وسلوك الناس على المدى الطويل ، ذلك لأن النقد يتم مع تقديم « المثل الاعلى » للمجتمع . أما فى القرية الثانية فقد ظهر حديث عن ضرورة وجود ايمان قوى وضرورة وجود قيم تحكم سلوك الناس .

أما الفئة الفرعية الأخرى من الجماعة العلمانية فانها لا تذهب هذا المذهب ولا يتسم وعيها بهذه الدرجة من التحديد . فبالرغم من تأثرهم بآراء الفئة السابقة ، وبالرغم من تقديمهم لوضع الريف وعدم رضائهم عنها ، إلا أنهم لا يربطون بين المشكلات الخاصة بالريف والمشكلات القومية على النحو الذى ظهر عند الفئة السابقة . فهم يعزون مشكلات الريف الى الجهل ، وانتشار الأمية ، والى انعدام الضمير ، ويتصورون الحل فى نشر التعليم ، واصلاح نظامه ، ونشر الوعى الذى يصلح الضمير .

(١٧) يلاحظ هنا تأثير فترة الستينيات حيث ظهر شعار رفع « الجهل ، والفقر ، والمرض » عن الفلاحين .

٢ - الجماعة الدينية : وهى فئة من المتدينين المتطرفين من الشباب وينضم اليهم بعض متوسطى العمر من المشتغلين بأمور الدين الرسمى (مدرسين أساسا) . وهؤلاء ينتقدون المجتمع فى كل شىء . ولا يعجبهم أى شىء بدءا من سلوك الناس وحتى انتشار الأشياء « المفسدة » كالتيلفزيون ، فضلا عن انتشار البدع التى لا يوصى بها الكتاب أو السنة والتى تنتشر عند المتصوفين وعند القائمين على شئون الدين فى القرية ممن لم يتلقوا تعليما كافيا . وينظر هؤلاء الى مشكلات المجتمع نظرة دينية : فالسبب الرئيسى فيها أن الناس قد تركت دينها وتركت كتاب الله وانحرفت فى تيارات عديدة . وهم يربطون فى هذا بين وجود نظام علمانى للحكم وبين وجود هذه المشكلات ، الأمر الذى يكشف عن وضوح الأيديولوجية الدينية ، أعنى الجانب السياسى فى الاسلام . ولكن تصورهم لحل هذه المشكلات وسلوكهم العلمى يكشف عن ازدواجية واضحة . فلا بد للقيادة الدينية أن تجد لها مجالا ، ولا بد من نشر الوعى الدينى بين الناس لكى يتخلصوا من البدع التى انتشرت فى القرى خاصة : البدع الصوفية والسلوك المرتبط بالخرافات والذى يشجعه نصف المتعلمين من المتدينين (أئمة المساجد وقراء القرآن وغيرهم) . ولهذا فإن نضالهم فى القرية لا يتجه نحو الغاية التى تحددها الأيديولوجية السياسية الاسلامية ، وإنما يتجه نحو محاربة الصوفية ومحاربة الأئمة التقليديين للمساجد ومحاربة الخرافات . ويركزون هنا على أمور شكلية بحتة خاصة بطريقة الأذان أو الفاء السلام أو طريقة الوضوء أو طريقة ختام الصلاة . انهم باختصار يحاولون أن يفهموا الناس أنهم أكثر دراية بالدين الصحيح من غيرهم . والازدواجية تنبع هنا من أن فكرهم يبدو سياسيا بالدرجة الاولى ، ولكن سلوكهم يتجه وجهة دينية متطرفة - فى الشكل أكثر من المضمون - تقضى على ما فى الفكر الدينى من سياسة . والدليل على ذلك أنهم بالرغم من انتقاداتهم للصفوة القديمة ومعارضتهم لها ،

الا أنهم لا يميلون الى ادخال انفسهم فى سياسة القرية بشكل مباشر .
وهم ان دخلوا فانهم يخلون فقط من وراء ستار .

والواضح هنا أن وعى الصفوة الجديدة أكثر تحديدا من وعى الصفوة القديمة ، وأن كان يكشف هو الآخر عن ضرب من التعددية بين الفئات المختلفة وأعنى ازدواجية دخل الفئة الواحدة .

ويمكن ان نستخلص من الوصف السابق لأشكال الرعى عند الصفوة بعض النتائج :

١ - أن وعى الصفوة - خاصة الصفوة القديمة - لا يتميز كثيرا عن وعى الجماهير فكلاهما يخضع لنفس المؤثرات الاجتماعية ، وإن كانت الصفوة تميل بشكل أكثر وضوحا الى تأكيد مصالحها ، مع تباين درجة التأكيد على هذه المصالح .

٢ - يتسم الوعى لدى معظم فئات الصفوة بعدم التحديد ، وتزداد درجة عدم التحديد بزيادة خضوع الفرد للعديد من المؤثرات المتناقضة ومع ذلك فإن هناك بعض الفئات التى تكشف عن وعى محدد ، غير أن هذا الوعى يظل عند مستواه الامبيريقى ولا يتحول الى وعى ممكن طالما انه يكشف عن قدر من التناقض أو الازدواجية .

٣ - أن تباين وتعدد أشكال الرعى عند جماعات الصفوة يرتبط - بلا شك - بالتعددية الضاربة بجذورها فى البناء الاقتصادى والثقافى للمجتمع ، وبالتالي بعدم تبلور التكوين الاجتماعى القائم وعدم تحدد معاله .

٤ - أن الازدواجية الكامنة فى وعى أعضاء الصفوة الجديدة وعدم الرضوح الكامن فى وعى بعض أعضائها الآخرين يمكن أن يفسر فى ضوء عدم استمرارية هذه الصفوة وعدم تبلور نضالها وتحديده ، الأمر الذى يجعلها فى موقف يشعرها « بعدم الأمن » يدفعها الى أن تمسك العصا

من الوسط • فلا هي تتجنى الى موقف راديكالى واضح ولا هي تترك
الموقف المناقض ، فربما تواتيها الظروف التي تجعلها تنقلب فى صف
هذا الموقف المناقض • ويرتبط ذلك - بلا شك - بما سنفرد عنه
فيما بعد فيما يختص بتحول مواقف الصفوة الجديدة •

٤ - تنعكس تناقضات البناء الاجتماعى على وعى الصفوة ، فيظهر هو
الآخر متناقضا • ويتبدى التناقض فى التناقض داخل وعى كل صفوة
على حدة ، والتناقض بين الصفوتين • ان تعددية البناء الاجتماعى
وتناقضاته تخلق هنا تعددية لوعى متناقض •